الحسين بن على

بقلم الدكتور

عبد الرحمن شهبندر

أذكر أنه حينما قام العلامة الأكبر شيخ العروبة الأستاذ أحمد زكى باشا ، حفلته الكبرى لتأبين المغفور له «الحسين بن على» كنت فى طريقى إليها ، أقدم رجلا وأؤخر أخرى . وكان يتردد فى النفس هاجس قوى أخاذ ، ليس لدفعه ساعتئذ من سبيل . فأما ذلك الهاجس الذى كان يتردد فى النفس ، فلم يكن إلا فى السؤال عما يستطيع أن يقوله الخطباء والشعراء ، فى تأبين ذلك العامل الجبار الذى أحاطت الدعايات الأجنبية اسمه بسياج من التضليل والتغرير ، اتخذت الأغراض والاهواء من تنازله عن العرش ذريعة للكذب والتزوير .

على أن الهاجس ما لبث أن زال بعض الزوال ولا أقول كله ، حينما سمعت خطبة شيخ العروبة وبقى على أن استوثق مما قاله بعض الخطباء الآخرين .

فلما أن قابلت حضرة زعيم سوريا الكبير الدكتور عبد الرحمن شهبندر أفضت اليه بما جال فى النفس مما سبق ذكره ... فأخذ حضرته فى إزالة مالبس على من حقيقة الرجل وتفضل باعطائى ما كتبه عنه ، بعد أن رغبت فى الحصول عليه ، زيادة فى التأكيد ، وحرصاً على متعة القراء ، فى الحصول على أصح الحقائق التاريخية . وها نحن أولاء ننشر قسما من المقال ، وذلك لوروده الينا والمجلة مائلة للطبع واعدين بنشر بقيته فى الجزء المقبل إن شاء الله .

المحرر

من المتعذر على من لم يتتبع الانقلابات السياسية والتطورات الاجتماعية التى طرأت على المملكة العثمانية منذ ثورة سنة ١٩٠٨ الى أواخر الحرب العامة ، أن يدرك سر القضية العربية أو أن يحيط بتفرعاتها ، بل إن بعض الفصول الدقيقة منها قد لا يفهم فهما صحيحا ما لم يكن الباحث على مشهد من مسرح الرواية أو اتصال بالممثلين أنفسهم

كنا على عهد السلطان عبد الحميد بعيدين عن النزعة القومية ولم يكن منانا الا انقاذ البلاد من استبداده وتخليصها من جواسيسه ورفع تلك الغشاوة الجاهلة التى كان يسد لها على العيون

فلما حصل الانقلاب الدستورى صفق له الأحرار طرباً فى انحاء البلاد وكان والحق يقال ثورة حرة خالصة قام بها مؤسسوها عن عقيدة لا دخل للمصالح فيها الا مصالح الوطن فاشتركت فى تقديسها والاحتفال بها جميع العناصر العثمانية على السواء وفى مقدمتها العنصر العربى .

الحسين بن على

لكن اكثر الانقلابات مهما كانت طاهرة يدخلها الرجس من غير أن يحس به أصحابها ومؤسسوها وهكذا كان شأن جمعية الاتحاد والترقي ، فبين عشية أو ضحاها أخذت الدسائس تحاك فى مركزها العمومى على أيدى رجال أغرار لا يفقهون السياسة كثيراً ، ولم نلبث أن نرى فكرة تتريك العناصر بادية على بعض الزعماء الاتحاديين الاندفاعيين الذين لا يقدرون العواقب قدرها فهاموا بها وظنوا أنها طلسم للأوصاب وبلسم للجروح ، وقد استولت عليهم هذه الفكرة الى درجة أنهم وضعوا أتيلا وخنكيزخان وهولاكو خان ، وغيرهم من المخربين المشهورين فى مصاف الأنبياء وزعماء الأمم ، ذلك لأنهم من العنصر المغولى وصاروا يتفنون بعبادة الذئب الأبيض لأنها عبادة القبائل الطورانية القديمة ، كما كان يرجع المصريون مثلا عن عبادة الله الى عبادة أوزيريس هياماً بالفرعونية ! والظاهر أن مؤلفاً

فرنسوياً يهودياً صاحب مكتبة فى باريس اكسب هذه الحركة رونقاً بقلمه السيال وخياله البديع .

هيجت هذه الخطة الاتحادية السخيفة الطائشة الشعور فى العالم العربى وكان حتى تلك الأيام متفانياً فى الدولة فاضطرب نظامه وحدث فيه رد فعل فأصابه ما يسمى فى كتب العلم « بالانتباه القومى » فقابل هؤلاء الاتحاديون الهوسى هذا الانتباه الطبيعى بالاجراءآت القاسية الى أن أعلنت الحرب العامة وخاضت الدولة غمارها فاجمعت كلمتهم على انتقاء أحمد جمال باشا وهو أجنبهم على الاطلاق لينتهز تلك الفرصة السانحة فيقضى على هذه النهضة بجميع الوسائل ولا يتسع هذا المقال لذكر المنكرات التى ارتكبها ولا الجرائم التى اجترمها وحسبنا فى الدلالة عليها أن نشير الى المآتم التى تقام فى البلدان العربية من أقصاها الى أقصاها لتأبين الملك حسين بن على ، لأن الأحرار هناك يعترفون بجليل ما قام به من الدفاع عن حوزة العرب وإنقاذهم من أيدى السفاحين الاتحاديين الذين لاقوا جزاءهم خصوصاً على أيدى منقذ تركيا من الاستعمار الأوروبى الغازى مصطفى كمال باشا .

ولما كنت أرجو « المعرفة » أن يكون لها من اسمها أسمى نصيب فى إذاعة المعلومات النافعة والملاحظات القيمة ، فقد أتيت بكلمتى هذه عن الحسين (وقد بعثت بها لتتلى فى المآتم المذكورة) لتنشرها فى هذه الأنحاء حيث كانت دعاية الاتحاديين وأعوانهم قد أفسدت الحقائق وشوهت الوقائع

...

لم نشعر فى أيام ثورتنا السورية بالحاجة الى شىء شعورنا بالحاجة الى المليك العظيم الحسين ابن على ، ذلك لان الذى القى الى سورية حبال النجاة وهى تغرق فى بحار مظالم الاتحاديين من أبناء الشرق فى سنة ١٩١٦ لايتأخر عن القائها اليها مرة ثانية وهى تغرق فى بحار مظالم المستعمرين من أبناء الغرب فى سنة ١٩٢٦ وهكذا فلا غبار علينا اذا نحن قلنا إن مقدار العطل الذى تصاب به الامة فى أعمالها بسبب موت العاملين فيها ، هى الى درجة بعيدة مقياس الرجل الكبير الذى تفقده من أبنائها — فعلى قدر هذا العطل تكون قيمة الرجل . ومما لاشك فيه أبداً أنه لو بقى لنا فى قيد الحياة الى أيام ثورتنا الشهداء الغر الميامين الذين فقدناهم على أعواد المشانق فى سنتى ١٩١٥ و١٩١٦ وكان المليك الهاشمى لايزال متربعاً على أريكته فى

«أم القرى» وله من موارد الحجاز ما يكاد يبلغ المليونين من الجنيهات — ما نقصنا السلاح والعتاد الذى كنا فى أشد الحاجة اليه ولا كانت الوادى المقفرة مسكنا لرجالنا العاملين .

واذا أراد الباحث أن يستخلص لنفسه حكما صحيحا على المليك الراحل فعليه أن يجرد نفسه من آثار تلك الدعاية الملفقة التى بثها جمال السفاح وأعوانه وان يبقى دماغه من تلك الأحلام الصبيانية التى تورط فيها الادعياء من طغمة الاتحاديين وان يرجع الى الزمن الأول الذى لم يكن فيه للأغراض الذاتية شأن يذكر بعد . ولا أدل على صفات الرجال من اللمحات التاريخية التى تؤخذ من سيرتهم العامة وهى فى بدء ارتقائها وعلى طريق تكوينها

يمت المليك الراحل بنسبه إلى أبى نمى القرشى وهو أول من تولى الأمارة فى سنة ٩٣٢ للهجرة (١٥٢٥ م) وكانت ولادة جلالته فى « أم القرى » فى سنة ١٢٧٠ هـ فنشأ فيها وترعرع فى سمائها إلى أن بلغ سن الشباب . فاستقدمه السلطان عبد الحميد إلى الاستانة منذ نحو أربعين سنة وبنى له على ضفاف البوسفور قصرا مشمخرا ومنحه الرتب والنياشين واعتنى عناية خاصة بتربية أبنائه وتعليمهم ، وكانت سيرته مثالا يحتذى به فى سمو الاخلاق وصدق العزيمة وبعد النظر حتى أن رجال الباب العالى كانوا يستشيرونه دائما فى الخطوب المدلهمة والمعضلات المتعلقة بسلامة الدولة ويزلون فى كثير من الاحيان عند رأيه . وبقى فى العاصمة العثمانية ١٩ عاما كان فى خلالها مفخرة للعرب وحصنا حصينا لقوميتهم خصوصاً متى قيس بالآخرين من أبناء عمه الذين تناسوا كل شىء عربى حتى لغتهم .

ولما حدث الانقلاب العثمانى الحر فى سنة ١٩٠٨ كان لمكة الشأن المفوق بعد الاستانة العاصمة السياسية ، وذلك لحرمتها الدينية فى أعين العناصر العثمانية فلا بد والحالة هذه من انتقاء أصلح رجل لها واكفئهم للاضطلاع باعبائها ، فعجم الاتحاديون عود رجالات العرب وكان الاتحاديون يومئذ فى طور تألفهم وهم بعد على العهود التى قطعوها للعناصر العثمانية وعلى الايمان المغلظة التى أقسموها — فلم يجدوا أصلب من الحسين بن على ولا أصلح منه . وهذا لعمرى شهادة يلمسها الأعمى وتهتز لها أذن الأصم بما للزعيم الراحل من المزايا لأنها قدمت فى ساعة الانقلاب وقبل أن تنظم الأغراض الشخصية وتبث الدعايات الكاذبة . وشتان بين الشهادة التى ينطق بها الشهود فى المحكمة فوراً وعلى غير استعداد سابق والشهادة التى تلقن بعد الرشوة والتواطؤ . فلم يكن دخوله « مكة » بأقل من

دخول الفاتح الذى أنقذ « أم القرى » من أنصار الرجعى ومؤيدى الاستبداد . لا جرم أنه دعى منذ تلك الساعة منقذاً فقضى قضاء مبرماً على تلك الهيا كل التى عبثت بأقدس المشاعر وجعلت عاصمة دين التوحيد والرحمة مرتعاً للشرك والمظالم . وإن أنس لا أنسى راتب باشا الوالى ومظالمه الفتاكة والصورة القبيحة التى طرد بها من الحجاز . أما الأحرار فى سائر البلاد العثمانية ، وفى مقدمتها الاستانة فكانوا يصفقون طرباً للسيرة المثلى التى سار عليها القفيد العظيم وكانت جرائد الترك تكيل له المديح جزافاً للعزيمة الصادقة التى أبرزها . واذكر أننى أول ما سمعت الحديث عنه من أناس عرفوه شخصياً كان فى الهيئة المركزية للاتحاد والترقى فى سورية فقد كان أمير الحج فى تلك الأيام المرحوم عبد الرحمن باشا اليوسف يقص علينا من الملاحظات عليه ما كان يجعله كبيراً فى أعيننا عظيما فى متانته واستقلاله ، ولطالما قلت فى نفسى لفأل حسن أن يتمرن زعيم عربى كبير من أبناء عمنا على شؤون الادارة وتصريف الأمور فى عهد الحرية والأخاء والمساواة لأننا ضقنا ذرعاً بالاهمال الذى كنا نعانيه فى شؤون الدولة وبالحقوق القومية التى سلبت منا .

ولما جاءت سنة ١٩٠٩ انتخب نجله الثانى سمو الأمير عبد الله عضواً عن الحجاز فى مجلس النواب العثمانى فكان حلقة الاتصال بين الترك والعرب وكانت الخطة السياسية التى اختطها له والده هى التعاون بين العنصرين العثمانيين الكبيرين على إصلاح شؤون الدولة فى الداخل والخارج . ومما يدل على اخلاص القفيد العظيم للجامعة العثمانية عقيب تلك الأيام التى لم يبق منها الا الذكريات ، أنه قاد بنفسه الجيوش العربية لاخماد ثورة قام بها أبناء عمه الأدارسة فى العسير على الحكومة العثمانية فحاصروا الجيش التركى فى (أبها) وضيقوا عليه الى أن فرج عنه الحسين وأنقذه من أنياب الموت . لا غرو أنه قال فى منشور الثورة الذى نشره على العالم الشرقى والغربى فى حزيران سنة ١٩١٦ « وقد حملت بالعرب على العرب » ولكنه ماذا رأى وهو فى طريقه من (أبها) ؟ إنه رأى بعينيه عربياً ثائراً وقع فى قبضة زعيم من الاتحاديين فأدخل فى جسمه عموداً من الخشب كالسفود وشواه على النار المتأججة شى الطهاة للطعم !

(...) عبد الرحمن شهبندر